

سيمياء الحرف العربي

. شتوفي نصرالدين⁽¹⁾

الإبقاء على لفظة « سيمياء » أو « سيماء » على أصلها كما هي في العربية الفصحى، ذلك لما فيها من دلالاتٍ أقربها إلى سياق الجمالية السحر والاستمالة؛ فليس خفياً ما في اللسان العربي القويم المبين من تأثير على النفوس والأذهان ثم السلوك.

وقد وُصف سيّد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه ساحر لبلاغته وحجّته وقوّة تأثيره. وكان العرب منذ عهد النبوّة «إذا سمعوا كلاماً يُعجبهم قالوا: إنّ من البيان لسيحراً.. وكانوا يقولون عنه بأنّه «السحر الحلال»⁽²⁾.

- من دلالات هذه اللفظة «سيمياء..» - في القاموس العربيّ الأصيل - ما يُشهر في أيّامنا بعلم الدلالة والسميائيات والتداوليات، وما يتصل به من تدبّر واستخلاص للمعنى انطلاقاً من الملفوظ (المنطوق) أو الملحوظ (المكتوب). فنجد تداول هذا البيت في المعاجم المصادر (الطويل):⁽³⁾

غلام رماه الله بالحسن مقبلاً سيمياء لا تشقّ على البصر
ونجدُ عند تعجيم «سيماء» و«سيماء» و«سيماء» استدلّاهم - بالإضافة إلى هذا البيت - بقوله تعالى: ﴿سيمَاهُمْ في وجوههم من أثر السجود﴾⁽⁴⁾ وتأتي كلّها بمعنى «العلامة» الدالة على حسن أو خشوع أو سهر أو كثرة وضوء وصلاة... «والسيما العلامة... والسيما بالمدّ وكذلك السيمياء...»⁽⁵⁾

(1) باحث في كلّية الآداب واللغات جامعة الجبلالي ليايس سيدي بلعباس الجزائر
(2) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، 2001م، ج8، ص277. (الحديث موجود في كتب الحديث المشهورة).
(3) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (المتوفى: 458هـ)، المخصّص، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق خليل إبراهيم جفال، ط1 1996م، ج5، ص14.
(4) سورة الفتح، من الآية 29. (وتقرأ بفتح الميم مدّاً وبالتقليل وبالإمالة، وأيضاً «سيماءهم»). وبهذه تتنوّع الدلالة رفعة وتواضعاً وخضوعاً..
(5) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (المتوفى: 458هـ)، المخصّص، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق خليل إبراهيم جفال، ط1، 1996، ج5، ص14.

وُحَالٌ فِي تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِنْدَ الْوُقُوفِ عَلَى «سِيَمَاهُمْ- سِيَمَاؤُهُمْ» إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ بِهَذِهِ الصِّيَغِ نَفْسِهَا. كَقَوْلِهِ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيَمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا حَافًا﴾.⁽⁶⁾ و يَأْتِي مِنْ اِشْتِقَاقِ «وَسَم» لَفْظُهُ «تَوَسَّم - يَتَوَسَّم - مُتَوَسَّم»، وَفِيهِ مَعْنَى الْقِرَاءَةِ وَالتَّأْوِيلِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي زَمَنِنَا؛ فَعِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.⁽⁷⁾ نَجِدُ مَعْنَى الْفِرَاسَةِ وَالتَّبَصُّرِ وَالِاسْتِدْلَالَ بِالْأُمَارَاتِ، وَالتَّنْظَرِ الْمُخْتَرِقَةِ لِلْحُجُبِ وَالْأَشْكَالِ الظَّاهِرَةِ، وَالْقَادِرَةِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَكْنُونَاتِ الْأَشْيَاءِ. وَفِي هَذَا الْمَجَالِ يُسْتَدَلُّ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ!»⁽⁸⁾

وَمِنْ أَسْبَابِ اخْتِيَارِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظَةِ الْقَامُوسِيَّةِ - بِمَا يُوَافِقُ الدَّلَالَةَ الْحَدِيثِيَّةَ - السَّعْيُ لِتَقْدِيمِ الْعَرَبِيَّةِ بِصُورَتِهَا الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا؛ إِذْ هِيَ لُغَةٌ إِشَارَةٌ بِالدرَجَةِ الْأُولَى، وَفِي وَمَضَاتِ الْإِلْهَامِ وَالِإِشْرَاقِ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفَةِ تَشْتَهَرُ مَقُولَتُهُمْ: «الْإِشَارَةُ تُغْنِي عَنِ الْعِبَارَةِ»، يَقُولُ الشُّبْلِيُّ⁽⁹⁾: «مَنْ عَرَفَ الْإِشَارَةَ حَلَّ لَهُ اسْتِمَاعُ الْعِبَارَةِ»⁽¹⁰⁾ يَقُولُ هَذَا الْمَعْنَى - وَقَدْ سَأَلَ عَنِ السَّمَاعِ - مُدَافِعًا عَنْ نَظَرَتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ/التَّصَوُّفِيَّةِ فِي اخْتِرَاقِ الْبَاطِنِ وَتَجَاهُلِ الظَّاهِرِ الَّذِي قَدْ يَوْهَمُ... وَعِبَارَةُ «الَّتَيْبُ بِالْإِشَارَةِ يَفْهَمُ» لَيْسَتْ مَجْهُولَةً فِي هَذَا الْمَجَالِ... وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ بَعِيدًا فِي سَبْرِ الْأَغْوَارِ وَمَطَارِدَةِ الْأَوْهَامِ وَالْأَفْهَامِ مِنْ خِلَالِ عَوَالِمِ الْحُرُوفِ حَتَّى اِشْتَهَرُوا بِتَسْمِيَةِ «الْحُرُوفِيِّينَ» وَصُعُبِ تَلَقُّفِ تَأْوِيلِهِمْ. نَقَرْنَا فِي مَعْرِضِ الْكَلَامِ عَنْ أَحَدِهِمْ (الْمِيرْزَا عَلِي مُحَمَّد رِضَا الشَّيرَازِي (1819-1850 م)

⁽⁶⁾ سورة البقرة، من الآية 273. سورة الأعراف/ من الآية 46 (يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَمَاهُمْ) والآية 48 (يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَمَاهُمْ). سورة محمد، من الآية 30. (وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَمَاهُمْ) سورة الرحمن، من الآية 41. (يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَمَاهُمْ).

⁽⁷⁾ سورة الحجر، الآية 75.

⁽⁸⁾ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430 هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د ت، ج 4، ص 94. انظر (ي) الترمذي محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحَّاك، أبو عيسى (المتوفى: 279 هـ)، سنن الترمذي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، ط 2، 1975 م، ج 5، ص 298.

⁽⁹⁾ أبو بكر دلف بن جعفر بن يونس الشبلي، شيخ متصوف زاهد من العصر العباسي (ولد في سامراء عام 247 وتوفي عام 334 هـ)

⁽¹⁰⁾ القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465 هـ)، الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، ج 2، ص

عبارة: «واشتغل بدراسة كتب الصُّوفية والرياضة الروحانية وخاصة كتب الحُرُوفيين وممارسة الأعمال الباطنية المتعبة».⁽¹¹⁾

والحرف في الكلام العربي غني بالدلالة في صوت نطقه، وفي خط كتابته ورسمه؛ وقد سمعنا قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم «أنا أفصح من نطق بالضاد»⁽¹²⁾، فلا يُعقل أن تُطلق هذه العبارة من فم نبيٍّ خبير ثم لا يكون لها أبعاد.. وهذا ينطبق أيضاً على قوله صلى الله عليه وآله وسلم «أوتيت جوامع الكلم» وما يعرف في فنّ البلاغة من قدرة على الإيجاز والإلماح والإشارة والرمز...

والحرف - بالمعنى المجازي (كجزء) - يعني الكلمة الواحدة أو الكلام مُطلقاً. والكلام البشري في حدّ ذاته لا ينبغي أن يخلو من جوهر المعنى وعمق الفكرة. ولهذا السبب كان لازماً أن يشكل الحرف علامة دالة على المعنى. وذلك بحسب تموضّعه في التسق وانسيابه مع سياق المعنى.

ومن بين الميزات الجميلة والجليلة أنّ الحرف العربي عندما يُلفظ يتساوَق صوتُ نطقه مع المعنى ويشكّل «مونوتونيات»⁽¹³⁾، وتصبح فيه الحركة (حركة مخرج الحرف واضطرابه به أو مروره عليه، وصورة رسمه مع هذه الحركة) حاملة لدلالات وفق السياق الذي تنشط فيه المعاني وتلتبس وتتلّبس فيه بتلك الصيغيات، وتكون المورفيمات والفونيمات في تنوّع تراكبها في الكلمات - بل هي بحدّ ذاتها ضمن ذلك التركيب - حقولاً لاصطياد المعنى عند التلقي الذكي والقراءة الواعية والمتذوّقة والتأويل المحتجّ...

وينبغي - قبل الخوض في التناسق والانسجام ما بين صورة الصوت والرسم للحرف العربي والمعنى الممكن والمحتمل فهمه - النّظر في معاني «حرف»⁽¹⁴⁾ والتي منها:

(11) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، ط4، 1420 هـ، ج1، ص 409

(12) الزركشي أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي (المتوفى: 794هـ)، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف بـ (التذكرة في الأحاديث المشتهرة)، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، 1986، ص160.

(13) بالأعجمية: «monotonies» و تعني انسجام و توافق صوت الكلمة مع معناها.

(14) انظر (ي) أحمد زرقعة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط1، 1993، من ص11 إلى 14.

- أن الحرف يكون بمعنى اللغة، أي أنه جزء من كلّ ويرمز إلى هذا الكلّ. وهذا معروف في البلاغة العربيّة بالمجاز المرسل بعلاقة الجزئية كما هو الشأن عند القصد بحرف الضاد إلى العربيّة كاملة. ويكون الحرف بمعنى الطّرف والجانب والناحية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾⁽¹⁵⁾ أي مائلاً ليس مستقيماً على حال واحدة، ولهذا يتواصل نسق الكلام في سياق نفسيّ للمناققين في نفس الآية ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِوَ إِنَّ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...﴾.

- ومعنى تحريف القلم تعديله، وتحريف الكلم تغييره، وتحريف العين تكحيلها، الحرفة اختصاص بعمل ما... وبتدقيق النظر وتعمّق القراءة في معاني هذه المادّة «ح ر ف» نفهم أن المعنى المشترك بين جميع هذه التّقرّيعات والاستعمالات هو الميل إلى ناحية أو أخرى.

وبهذا الفهم نصل إلى نتيجة منطقيّة في استعمال الكلام لأصوات منسقة بطريقة معيّنة يميل بها المعنى إلى جهة ما بسبب تغيير هذا الصّوت. ونفهم أن هذا الحرف - بالمعنى الأبجديّ - سينحرف معناه بحسب تبدّل الصّوت المسمّى بالحركة. وبهذا سيكون الحرف حقلاً لانحراف المعنى وانزياحه.. ولهذا ينبغي فهم هذه التّسمية على نحو كونه مجال انحراف المعنى وفق نسق التّركيب للكلمة الواحدة ووفق السّياق المترابطة فيه جُمْلُ الحروف والكلمات المشكّلة لها في تتاعم الكلام وانسحاق اللغة المنطقيّ.

بل سيكون الكلام في هذا المجال أيضاً عن الحرف بحدّ ذاته كما هو مقسّم إلى أحاديّ وثنائيّ وثلاثيّ ورباعيّ.⁽¹⁶⁾ وسيكون لكلّ واحد من هذه الحروف معناه وفق تموضعه في الكلام.

وفي العربيّة لا يقتصر الكلام على هذه الحروف (أي التي تُميل المعنى وتحركه إلى جهة ما)، بل يتجاوز إلى حركات هذه الأبجديّة. والكلام هنا ينبغي أن يتجاوز إلى ما يُطلق عليه بالصّوائت والصّوامت والأبعاد التي يمكن قراءتها عن طريقها.

⁽¹⁵⁾ سورة الحجّ، الآية 11

⁽¹⁶⁾ الأحاديّ مثل « الهمزة والباء والتاء.. » والثنائيّ مثل « في-لم - لن- كم- إن... » والثلاثيّ مثل « أل- أما- إذا... » والرّباعيّ مثل « لولا- حتّى- لوما... ». والأحاديّ حروفه مفردة، والباقيّة حروفها مركّبة. (انظر (ي) الرّمانيّ أبا الحسن عليّ بن عيسى التّحويّ (توفي 384هـ)، معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل سليبي، دار الشّروق للنّشر والطّباعة والتّشّرع، ط3، 1981 منص32 إلى 133.

ومن أمثلة هذه المعاني وهي كثيرة:
- ما ذكرت «عباد» بمدّ الفتحة عن طريق الألف إلا دلت على رفعة قدرهم أو دخولهم في عموم الناس، وفي الحالتين لم يبتعدوا عن كونهم مفضلين ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽¹⁷⁾.

وكانّ هذه الألف تشير إلى عظمة الإنسان، وبالأخصّ عندما يعبد ربّه؛ فهي - على مستوى الصّوت - من الصّوامت يمتدّ بها الصّوت بفتح الفمّ مع الإطلاق. وفي هذا الإطلاق انسجام مع حالة العبد - ما دام السّياق هو العبادة والدّلة والاستسلام - من الدّهول في حضرة الرّبّ عزّ وجلّ.

ولهذا استحقّ هؤلاء العباد - بهذه العبادة والانسحاق والتّناغم مع فطرتهم السّليمة - أن يكونوا في المنزلة العليا. وما يدلّ على هذه الرّفعة وينسجم معها ما ينبغي ملاحظته من أنّ هذه الألف - على مستوى الرّسم والكتابة - تشير إلى الأعلى.

ولن يكون هذا محض تأويلٍ واهمٍ أو إسقاطيّ؛ ولنا في فواصل (18) سورة الكهف أبرع مثال في الانسجام والاتّساق بدلالة الرّفعة و علوّ القدر؛ إذ تنتهي آياتها بهذه الألف، وهي متساوقة مع توحيد المعبود سبحانه.

وما يؤكّد هذه الدّلالة ما ورد ذكره في آيات هذه السّورة ممّا هو نقيض ما اختاره الفتية، أي التّمسك بالله عزّ وجلّ (وهو الأعلى)، بينما اختار غيرهم ما هو دونه من آلهة يعبدونها. وينبغي هنا الانتباه إلى استعمال القرآن الكريم لفظة «من دونه» مكرّرة في هذه السّورة. وحتّى سبّحها بحرف الجرّ «من» وجعلها منطوقة بكسرتين «نِه» يتساوق مع هذه الدّلالة ويؤكدّها؛ فقد اختار القوم الأدنى، فناسبهم أن يكون نطق موضع إيراد سياق الشّرك موسوماً بالكسر أو الجرّ أو الخفض. وهذه الألفاظ الثلاثة - المستعملة في النحو العربيّ - تحيل إلى حالة الانكسار والدّلة، لكن ليس بالمعنى المرتبط بعبوديّة من يستحق العبوديّة ويرتفع بها قدره. فقدرهم بالشّرك سيزداد وضاعة. وهنا ينبغي التّأكيد على أنّ الكسرة ليست في كلّ حال تدلّ على الخضوع والدّلة بمعنى الانهزاميّة والصّغار. ففي هذا المثال «دونه»

(17) الإسراء الآية 70

(18) تعويض السّجع في البلاغة العربيّة بالفاصلة في القرآن الكريم لارتباطه بالسّحر والعرافة.

يجدر التذكّر أنّ هذه الهاء- هاء الضمير المتّصل - تتعلّق بالله سبحانه، وأنّ أصلها في تركيب الكلمة «هو»، وإنما كسرت بسبب مجاورتها لحرف مكسور. ولنا في أحكام التلاوة نماذج في ترقيق الحرف واستقاله⁽¹⁹⁾ إذا سبق بكسر أو إمالة بلّة إذا كان هو نفسه مكسوراً (كالراء).

ونقرأ في هذه الأحكام مثل هذه العبارات: الفتح والضمّ موجب للتّخيم، والكسر موجب للتّريق في حكم الراء، فإذا كانت ساكنة يؤثّر على تخميمها ما قبلها مضموماً أو مفتوحاً، وعلى ترقيقها مكسوراً.. فإذا كان ما قبلها ساكناً يؤثّر عليها تخميماً وترقيقاً ما قبله مثل «فرعون».. فإذا كان بعد الراء حرف استعلاء⁽²⁰⁾ لا بدّ من تخميمها وإن سبقت بكسر «فرقة - إرساداً - لبالمرصاد - قرطاس» وتفتح إذا كان قبلها همزة وصل.. وترقق إذا سبقت بياء ساكنة «خير - خير».....

والملاحظة المحصّنة في دلالات هذه الصيغ اللفظيّة النّطقيّة - الواردة بحرص شديد في أحكام التلاوة - لا بدّ أن تجعل القارئ يبحث في المعاني الممكنة والمحتملة من ورائها، والتي تثبت تناغماً لا نظير له في اللسان العربيّ.

وينبغي النظر بتدبّر وقراءة في دلالة هذه الملفوظات العربيّة التي أكّد القرآن الكريم مصداقيّتها وقيمتها عندما وافق لهجات العرب في التّزول بها، وقد أشار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلّم إلى هذا بقوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكلّ حرفٍ منها ظهْرٌ وبَطْنٌ»⁽²¹⁾. وهذا القول الحكيم يؤكّد أيضاً على إمكانيّة بل ضرورة التّأويل والتّدبّر لأيّ القرآن الكريم ودلالات حروفه، وذلك إذا انتبهنا إلى قوله «لكلّ حرفٍ منها ظهْرٌ وبَطْنٌ».

ومما يلفت الانتباه في سورة الكهف بل في القرآن الكريم أنّه ما وجدت هذه اللفظة «من دونه» إلا وكان في سياقها صوتان منسجمان مع حالة القوّة والعلوّ في مقابل الضّعف والانهماميّة. الحالة الأولى لن تكون

(19) انظر (ي) معنى الاستعلاء والاستفال في: عبد الفتاح بن السيد عجمي بن السيد العسس المرصفي المصري الشافعي (المتوفى : 1409هـ)، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط2 دت، ج1، ص 81.

• (20) جُمعت في (خص ضغط قظ)

(21) أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: 307هـ)، مسند أبي يعلى، دار المأمون للتراث - دمشق، تحقيق حسين سليم أسد، ط1، 1984، ج9، ص 278.

سوى في صفّ أهل الإيمان والتوحيد. والحالة الثانية في صفّ الشّرك وأهله.

هذان الصّوتان هما هذه الألف إطلاقاً أو وصلاً للفتحة - في حال تعلّقها بالله ربّ العالمين -، والضّمة - علامة الرّفع والرّفعة - والواو - مدّاً لها - دلالة على قهر الله للمشرّكين وتأكيداً على مغلوبيتهم..

وفي ذات النّسق الكلامي نجد ما يؤكّد صورة الصّغار الواسمة للمشرّكين، نجدها مجسّدة في الكسرة على الأخصّ وفي ياء مدّها لها وفي التّصّب بعلامة الفتحة - دلالة على المفعوليّة والمغلوبيّة - كما في قوله سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (22) أو قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (23)، وفي الألف - حال تعلّقها بالمعبودات غير الله - كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ (24)، وفي وجود ما ينفّي منح القدرة والنّصرة عند عبادة الآلهة دون الله سبحانه كما في حرمانهم من الشّفاعَة (الآية 86 من سورة الجن)، وكما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾...

ومما يوضّح ويؤكّد هذه الدّلالة التّنوینُ الناتج عن التّكثير (إنّاثا - شيطاناً - مريداً). ولنفقنصر على الأمثلة السّابقة! فهو يدلّ على تحقير إذا كان في سياق العذاب والإذلال لمن حاد عن فطرته واختار عبادة غير العظيم سبحانه. ويحمل هذه الدّلالة خاصّة إذا ارتبط بحركة الكسر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...﴾ (25). فذكرت لفظة «حياة» نكرة وفي نفس الوقت مكسورة. والمعنى منسجم مع حالتهم. وفي المقابل نجد كلمة «الشّفاعَة» معرفة بـ «ال» دلالة على قيمتها في ذاتها، ولكنّها مسحوبة منهم بسابقتها «لَا يَمْلِكُ...».

ومما يزيد هذه الدّلالة تأكيداً وجودُ فتحة المفعول به - المحيل إلى المغلوبيّة - في لفظة المضاف «أحرص» وكسرة المضاف إليه «النّاس» ثمّ تكرّرها في «حياة».. وفي ذات السّياق تتبغى ملاحظة

(22) سورة الأنبياء الآية 3 (ملاحظة فتحة المفعول به على الهمزة «أولياء».)
(23) سورة الجنّ الآية 86 (ملاحظة الفتحة على التاء «الشّفاعَة» وسحب النّصرة والّجاء منهم ..)
(24) سورة النساء 117 (ملاحظة الألف بعد فتحة المفعول به و نعتة «إنّاثا - شيطاناً - مريداً»)
(25) سورة البقرة من الآية 96

حالة الضَّعْف والخوف عند هؤلاء الذين يتمسكون بأي شيء ليبقوا على قيد الحياة أي حياة. والعجيب في الانسجام أن كلمة «أحرص» المضاف لا تستغني عن كلمة «حياة»، بل تتشَبَّث بها. وهي صورة نحوية منسجمة مع حالتهم النفسية الضعيفة والمستكنة.

فكرة الغالب والمغلوب لها بصماتها في جعل المضاف إليه مجروراً، لكنّها مغلوبية اكتسبت طابعاً اجتماعياً وخضعت لقانون الضمير الاجتماعي الذي فرض كرم الضيافة، فيتحوّل صاحب الدار (المضاف إليه) إلى خاضع لخدمة الضيف (المضاف). فدلالة المغلوبية هذه (في كسرة المضاف إليه) ليست بالمعنى القهري القسري، بل اختياراً لرفعة الكريم وسمعة الأخلاق الفاضلة. فالقصد من هذا أن الكريم «المضاف إليه» لا بد أن يكون في خدمة الضيف التّزِيل عنده «المضاف». وقد شاع عند العرب القول «سيد القوم خادمهم». وهكذا كانت الكسرة منسجمة مع حالة التواضع/ الرفعة، أو الخدمة/ السيادة.

ولننظر في مثال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾! الضمّة على دال «عِبَادُ» والألف منسجمتان مع رفعتهم، وكذلك في مدّ الميم بالألف في «الرَّحْمَن».. أمّا الكسرة فأيضاً منسجمة مع حالتهم من الخضوع له سبحانه. وهي مكتملة لمعنى الرفعة عن طريق هذه العبادة، إذ أضافهم الله إليه ورفع من شأنهم.

ومع هذا ينبغي الحذر من الوقوع في الخلط والهرطقة. وينبغي لمن يسعى للاشتغال على المعنى ومطاردته والإمساك به سليماً ألا يخرج عن سياقه وأن يكون على دراية بنسق الكلام وفنّ تركيبه وتحرف المعنى مع تغيير هذا التركيب.

وفي كلام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم «أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ»⁽²⁶⁾ إشارة بيّنة إلى إمكانية جعل الأسلوب اللغوي مبيناً للمعاني في خطاب جميع المستويات من المتلقين والقراء والمتأولين، فيفهمه كلٌّ بحدود فهمه، ويعترف منه بقدر ما يستطيع. بل في القرآن الكريم هذه الإشارة جليّة عند وصف القرآن بأنه أنزل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.⁽²⁷⁾

(26) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، 2001، ج12، ص366.
(27) سورة الشعراء من الآية 195.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «لولا أن الكلام يُعَادُ لَنَفَدَ»⁽²⁸⁾ ومعنى هذا أن الكلام البشري لا يتركب سوى من مَخارج معدودة بصفات مُعَيَّنة خاصة لكل صوت، ولكل حالة من حالات النطق به في موضعه من الصَوِيَّات والأصوات المجاورة والملاصقة له. ولكنه يمتد بالمعنى إلى حدود بعيدة.

«وقال بعضهم: كل شيء ثنيته قصر إلّا الكلام فإنك إذا ثنيته طال.. وإمّا تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها...»⁽²⁹⁾ وقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽³⁰⁾ ويكفي إشارة ما ورد في الذكر الحكيم من إيعاز إلى تحفيز الفكر في اقتناص الدلالة ومطاردة المعنى؛ ذلك في الحروف المقطعة في أوائل بعض السور (الم، المر، كهيعص، ق، ن، ص...).

وقد تنبّه القدماء إلى قيمة الحرف، وهو ما يظهر في تأليفهم مثل: أسباب حدوث الحروف لابن سينا، كتاب الحروف للفارابي، كتاب حروف المعاني للزجاجي، الحروف للساجستاني. وكذا مسألة الاحتباك البلاغية التي أثارها جلال الدين السيوطي وما تحيل إليه من حسن السبك للعبارة في سياق الفصاحة وما ينبغي أن ينبني عليه الكلام البليغ.

وفيما يلي إيراد بعض النماذج مع اختزال شديد في مطاردة الدلالة لما لا يتسع له هذا المقال:

تاء التأنيث

تاء التأنيث في العربية - كصورة الأنثى - لها أسرار، وعليها إصرار. اهتم بها الرجل العربي وهو يسطر مشاعره ويخط معانيه. شأنها كأى لفظة سياقها المؤنث، كاسم الإشارة والاسم الموصول؛ فقد تعددا في المؤنث أكثر مما دُكر. تاء التأنيث في الاسم مربوطة في عرف النحاة وكتبة الإملاء العربي. وسواء أكان اسم ذات أم معنى، فهو أنثى لأبد أن تقترن بها الدونية والضعف والاستسلام.. وفوقية المذكر علامة ذكورية قد تبتثر في الجنس نهاية الأمر وأوله.

⁽²⁸⁾ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، الصناعتين، المكتبة العنصرية - بيروت، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، 1419 هـ، ص 196.
⁽²⁹⁾ نفسه، ص 196.
⁽³⁰⁾ سورة الروم، الآية 22

تاء التانيث هي الأنثى التي لا ينبغي لها أن تستعلي على القوي (المذكر)، ولكنها منفرضة عليه، لهذا ليس لها أن تكون إلا مربوطة. وعليها عينان (نقطتان) ترقبانها باستمرار. ولعلّ قراءة أخرى تنبجس من صخرة القسوة عليها؛ فلماذا لا تكون هذه الدائرة علامة على سيطرتها هي على الرجل واحتوائها له، وأنّ النقطتين رمز لهذه التانيث التي لا ينبغي أن يحدث عليها انفصام؟!

وما يؤكّد هذه السيطرة والاحتواء اكتساحها للمذكر في مواطن في اللغة العربية كما هو الشأن في باب «تأنيث العامل للفاعل» كقولنا: «ما فهم غير خديجة.» (ما فهمت.) ، وما يسمّى بالموثث المعنوي - مقابل الموثث الحقيقي - المخصّص أحياناً للمذكر كما في المبالغة «فهامة - علامة...» ، وفي جمع بعض الكلمات بالتأنيث «رجالات، نهارات، حمامات...». وفي هذه الصيغة من الجمع لا بدّ من إيراد ملاحظة صوتية (أي لفظية نطقية)؛ فهي وإن اقترنت بالموثث - عن طريق التاء - إلا أنّها جاءت ملفوظة بعلامتين دالتين على الرقعة (ممثلة في الألف)، وعلى الحرية والانطلاق (عن طريق التاء مفتوحة كما في الفعل الدال على الحركة والنشاط). ومما عيب على المتنبّي هذا الجمع لـ «بوق» بدلاً من «أبواق» على «بوقات» في قوله:

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ
فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطَبُولُ

لكنّه كان في موقف هجاءٍ وتحقير فجمع الناس - في صورة البوق - على الموثث. وتبقى هذه القراءة تأويلاً يسعى إلى التوفيق بين الكلام وسياقه الاجتماعي أو النفسي...

لكنّ هذه التاء في لغة العرب الناضجة و الإشاريّة برزت في القرآن الكريم على تنوّع باهرٍ يمنح إمكانيّاتٍ للتأويل تكشف عن أسلوب لغويّ أو كلاميّ واسع الدلالة. وذلك على نحو ما كتبت (جئة، امرأة، مرضاة، قرة، ...) مفتوحة مبسوطة في خط القرآن الكريم (جئت - امرأت، مرضات، قرّت...).

أمّا كتابتنا اليوم فهي مُحجّرةٌ لوَاسِعٌ مُضيّقةٌ لفرص التأويل وسعة القراءة. فمثلاً: من الغريب أنّها (التاء) في كلمتين متجانستين بنفس الحروف، تُكْتَبُ مؤنّثةً مربوطةً، بينما تُكْتَبُ في حالة التذكير منبسطة مفتوحة. [فتاة/فتات - مِقة/مقت]. وربما لهذا صلةً بذهنية الذكورية

المستعلية الرّغبة في الهيمنة على المؤنث والتّضييق عليه والانفتاح والانبساط للمذكر.

والأمثلة في كتابة هذه التّاء مفصّلة في شرح أحكام التّلاوة ورسم المصحف الشّريف.⁽³¹⁾ وكمثال بسيط قريب من القدرة على شيء من التّأويل في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾؛⁽³²⁾ فيمكن فهم ربط التّاء في «الحياة» ثم جعلها مفتوحة ممدّدة في «الممات» دليلاً على قصرها وانقضائها في زمن الدّنيا، ثم على الخلود في الآخرة. كما كتبت مفتوحة في ﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ﴾⁽³³⁾ وفي ﴿وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾⁽³⁴⁾ دلالة على الخلود والامتداد الزّمني، وفي «مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ»⁽³⁵⁾ دليلاً على التّماضي في معصية الرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم. (وينبغي هنا ملاحظة ربط هذه المعصية بالكسرة - تحت التّاء «مَعْصِيَتِ» - إشارة إلى انحطاط هؤلاء العُصاة وانخفاض مستواهم وانجرارهم وراء أهوائهم...).

ويصعب البلوغ إلى تأويل المعاني في هذه التّاءات التي رسمت في المصحف الشّريف مفتوحة ومربوطة في مواضع مختلفة. وهذه التّاء وحدها - كما غيرها من الصّوامت والصّوائت - تصلح أن تكون في فضاء السّيميائية والتّأويل دراسة ماثعة...

وقد ترتبط بفكرة سلطة المذكر في الدّهنية العربيّة - إذا ما انتبهنا بعين أنثروبولوجيّة إلى هذه الجوانب النّفسيّة والتّاريخيّة - ، فيكون ربطها للمؤنث دلالة على التّضييق على الأنثى العربيّة، وكأثماً رسم النّقطين فوقها علامة على المراقبة المستمرّة. أمّا في القرآن الكريم فالمسألة بعيدة عن هذه الفكرة، بدليل كتابتها مفتوحة في مواضع معلومة.. ويصبح لكلّ هيئة كتبت عليها إمكانيّة تأويليّة لا بدّ أن تكون منسجمة مع السّياق الواردة فيه، مع الحذر الشّديد من إرسال الخيال في غير ما يخدم المعنى ويحقق متعة صافية..

وممّا يدعم فكرة المغلوبيّة مقترنة أكثر بالمؤنث وصف الهادي الحكيم صلّى الله عليه وآله وسلّم للنساء بالضعف في مواطن كثيرة و

(31) انظر (ي) التّويزي محمد بن محمد بن محمد، أبو القاسم، محب الدين (المتوفى: 857هـ)، شرح طبية النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلميّة - بيروت، تحقيق الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، ط1 - 2003 م، ج2، ص 60.

(32) سورة الإسراء الآية 75.

(33) سورة النّخان من الآية 43.

(34) سورة الواقعة من الآية 89.

(35) المجادلة الآيتان 8 و 9.

استبصاؤه بهنّ خيرًا، على نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أحرص حقّ الضّعيفين: اليتيم والمرأة»⁽³⁶⁾.

ومما يؤكد أيضًا صورة هذا الضعف وينسجم معه أنّ تاء التأنيث لا بدّ لها أن تُنصب بالكسرة نيابة عن الفتحة؛ فالعربيّ يصوت بتاء التأنيث أقرب إلى دلالة الانكسار والاستسلام (إنّ الفتّيات...). ولعله استسلام قد يُقرأ أنوثيًا في مواضع وسياقات نفسية معيّنة. فمن العلامات الصوتيّة المناسبة والمنسجمة مع هذه المغلوبيّة الكسرة (جماعة الإناث، أنت) والسكون (الفعل الماضي) و الهاء الممزوجة بهذا السكون عند الوقف على تاء التأنيث (امرأة). وهنا تقترب القراءة من الأنوثة المغربيّة؛ إذ تسمّى هذه الهاء هاء استراحة أو سكت.. وهنا مجال آخر في إسقاط الجنس - بطريقة إيحائية - على كثير من الأشياء وتلبسها به في الثقافة العربيّة، وفي تلك النظرة الدنيّة للمؤنث، وتواجد صدى وبصمة هذه الثقافة على رسم الحروف العربيّة. وهنا لا بدّ من تسجيل ملاحظة ضروريّة عن استثناء رسم الوقف القرآنيّ من هذه الدلالة التحقيريّة للمؤنث. بل العكس هو الصّحيح.

وفي حكم الرّوم والإشمام⁽³⁷⁾ من أحكام التّلاوة ما يزيد القارئ انفتاحًا على التّأويل على هذا التّحو؛ فلا روم في فتح، ولا إشمام - حال تسكين الحرف عند الوقف - إلا في ضمّ. فمثلاً الوقف على الهاء المنقلبة عن تاء التأنيث المكتوبة مربوطة لا روم ولا إشمام فيه. أمّا هاء الضمير المذكّر فيكون فيها روم وإشمام.⁽³⁸⁾

والملاحظ عند تفصيل حالات الرّوم والإشمام - في علاقاتهما بما يسبق الحرف الموقوف عليه من ساكن أو مفتوح أو مضموم - أنّ وظيفتهما إيانة وإعراب الكلمة حتّى لا يلتبس معناها، وأنّ المجاورة الصوتيّة لهذه الحروف لها أثرها في هذه الظاهرة الصوتيّة، كما في غيرها ممّا هو معروف في مخارج وصفات الحروف من ترقيق وتفخيم وغيرهما.. والكلام عن دلالة هذه المجاورة سيّضح بعضه في حرف الرّاء.

⁽³⁶⁾ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، 2001م، ج15، ص416.

⁽³⁷⁾ الرّوم خفضُ الصّوت عند الوقف على آخر الكلمة بضمّ أو كسر (بغية إعراب الكلمة صوتيًا، يسمعه القريب دون البعيد). والإشمام ضمّ الشّفتين عند تسكين الوقف (بحيث يراه من يُبصر ولا يراه الكفيف).

⁽³⁸⁾ هذا الحكم ليس مطلقًا على كلّ قبائل العرب.

- الرّاء

والرّاء نموذج تتّضح فيه فكرة المغلوبيّة والغاليّة أو التّعظيم والتّصغير عن طريق التّأثير بالمجاورة (أي ما يسبقها أو يلحقها من مفخّم مستعلى أو مرّقق مستفال). كما في كلمة « فرعون » لأنّها سبقت بكسر وهي ساكنة فرّققت بسبب الكسر. وهي منسجمة مع صورة الحاكم المستعلي في الأرض، فعكست صورته إلى انحطاط وتقليل.

لكنّ هذه الرّاء نفسها عندما تتكرّر في ذات الكلمة لا بدّ من تجاوز هذه المجاورة فلا ترقيق لأجل ما سيقها، بل تفخّم (لتكرارها) كما في «مِزْرَارًا، إصْرَارًا...». وهي تفخّم لنفس السّبب في سابق وحده أو سابق ولاحق كما في الوقف على الرّاء في «العَصْر - خُسْر...» فتفخّم بسبب الصّاد والخاء... وكذلك تفخّم بسبب مجاورة ما بعدها كما في القاف والطّاء والصّاد في «فرقة - قرطاس - مرصاد...».

وكأنّ تفخيم الحرف بسبب المجاورة يشير إلى قوّة العربيّ بالجماعة والتّعدّد ويؤكد عليها.. وقد كانت هذه الفكرة في الجاهليّة في صورة القبيلة والبطن والأحلاف، وازدادت في الإسلام في صورة الجماعة مقابل التّفريق والتّنازع والفشل.

الباء

الباء أمّ الكسرة ودليل على الخفض والجرّ والانحطاط، وعندما ذُكر موسى عليه السّلام وهارون في موقف الضّدّيّة والصّراع بين الحقّ والباطل كان انسجاماً أن تبقى الألف بدلاً عن الباء - دلالة على الرّفعة - في اسم إنّ ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّرِيدٌ أَن يُخْرِجَكُم﴾⁽³⁹⁾ فلم تبقى «هذين» كما هو الشّأن في عموم لسان العرب. وتدلّ «إنّ» مخفّفة على استخفاف فرعون بهما وتنسجم معه. ولكن تبقى الألف محافظة على علوّ مكانتهما قبالة فرعون وجنوده ومؤكّدة على رفعتهم وتصرّتهما وقومهما.

⁽³⁹⁾سورة طه الآية 63 (لمن يقرأ ب «إنّ» إذ تُقرأ أيضاً: «إنّ هذان...»).

العربية غنيّة كثيراً بالدلالات وتحولها، وفق نسق معيّن وضمن سياق ما. ولهذا كله يكون الحرف العربيُّ بحدّ ذاته آيةً وعلامةً⁽⁴⁰⁾ له دلالاته القصوى المُوغلة في الغموض والشُرود أو القريبية من الفكر، تنتبّعها القراءة، فتُخفق في اكتناه معانيه أحياناً، وتُفلح في الوصول إلى تكوين صورة وتشكيل فهم أحياناً أخرى. وذلك انطلاقاً من التعامل مع هذا الحرف وفق مكانته في النسق الكلامي وتواجهه في السياق. ولكلّ قدرته وملكوته في الوصول إلى مُدرّكات المعاني، بقدر ثقافة اللغة واللّسان لديه، وبحسب الأحوال المختلفة، بداية من النفس الإنسانية وصلتها ووعيها وتفاعلها بما يحيط بها من حالات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية... وما تفعله هذه الحالات من تأثيرات ذهنية أو فكرية أو نفسانية...

ويبقى الحرف دائماً حاملاً لهذه المحمولات كلّها، ما أطاق الإنسان أن يحمله ويغترفه وما لم يُطق ولم يسطع إليه سبيلاً ولم تُسعه ومضاتُ الإلهام. وهي (الومضات) قد تأتي في لحظة خاطفة من لدن نور الفهم الناتج عن طول تأمل وعمق تدبّر. وقبل كلّ شيء هي وليدة انسجام مع العقل الباطن، فيفلح عندها القارئ في تلقّف المعنى لتوافر هذه الشروط مجتمعة، ويُخفق إمّا لغموض وبعُد المعنى (أي عجز ونقص القدرة المعرفية خاصة على الاستيعاب)، وإمّا لصعوبة تركيبه الأسلوبية، وذلك في شكل مادّة صوتية أو خطيّة ليست في متناول مختلف المستويات. فيأتي الأسلوب بهذا الشكل بعيداً عن وضوح الفصاحة وجمالية البلاغة الجاذبة والمقربة لتلك المعاني.

(40) ورد في العين ج1، ص31 وج8، ص441: «فلو تكلفت من الآية اشتقاقاً على قياس علامة معلّمة لقلت: آية مأياة قد أُييت» و في مقاييس اللغة، دار الفكر تحق عبد السلام محمد هارون، ج1، ص 168 «الآية العلامة، وهذه آية مأياة، كقولك علامة معلّمة. وقد أُييت»...